من ظواهر القراءة في بلادنا وفي الغرب

شكيب كاظم

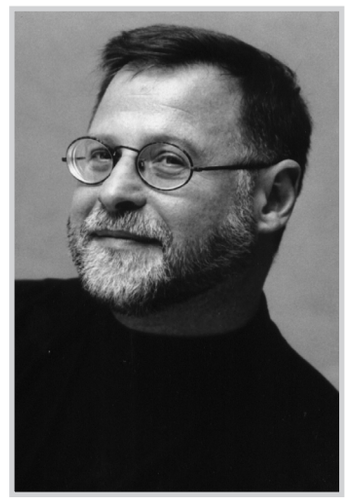

مرةً، قرأت في كتاب (نقد النقد) لتزفتان تودوروف أن الشعب الفرنسي من أقل شعوب أوروبا قراءة، فعلقت على ذلك وكتبت: لعل ذلك هو السبب في وعورة أساليب الكتاب الفرنسيين، والنقاد خاصة والذين جاءوا بنظريات النقد الحديثة: البنوية والتفكيكية وكأنهم يرومون من وراء ذلك إيقاظ هذا القارئ النائم، إنهم يدقون على صفحات الكتب عل هذا القارئ الافتراضي يستيقظ ويعود الى عالم الحرف، عالم الكتاب والمجلة والصحيفة، مثلما حاول الماسيدوني الكسي زوربا الإنسان المدهش المملوء بحب الحياة وبهجتها، النساء، بطل رواية (زوربا) رائعة الكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكي (١٨٨٥-١٩٥٧) برقصته ودقه على الأرض بكعب حذائه، إيقاظ النيام وقول ما عجز عن قوله لسانه، كانت رقصته رقصة تحد وعناء وتمرد وغضب على واقع الحياة، وهو ما استلهمه الروائي السوري الكبير سنا وفناً (حنا مينة) في رائعته (الشمس في يوم غائم) حيث كان الخياط يعلم الرواي كلي العلم، الرقص ودق الأرض عل ابنة الكلبة تستيقظ، أرضنا النائمة ليوقظها وستستيقظ في نص روائي جميل متخوم بالمرموزات السياسية اليسارية التي يمررها حنا مينة بانسياب وهدوء.

أقول: فإذا كان القارئ الفرنسي قارئاً كسولاً افتراضياً فأين سنجد القارئ العراقي وقد سحقته الأزمات ومتطلبات الحياة المتسارعة؟ أو العربي الذي تضربه الأمية الأبجدية، فضلاً عن الأمية الثقافية، فحتى الذي يعرف القراءة والكتابة عطل هذه النعمة التي جاد بها الزمن عليه وتركها تحت جليد الحياة وصقيعها وصخبها المتسارع المدوم، من دون أن يفكر وقتاً باستخراج هذه النعمة، الهبة والنهل من أفضالها، وقد طغى العزوف عن القراءة حتى على من يمارسون الكتابة وأكثر واحد أباح لي بأنه بارح زمن القراءة، وهذا هو زمان الكتابة!! فقلت له: كتابة من دون قراءة ليست كتابة، بل تسطير حروف على رمل ساف، لا بل طال حتى الجامعة، ولا أقصد طلابها، فهذا أمر مفروغ منه، بل الكثير من أساتذتها!!

أستذكر هذا وأنا أطالع شذرات موحية من حياة الشعوب ولقد التقطت إحداها وأنا أقرأ الكتاب المهم (يوميات القراءة: تأملات قارئ شغوف في عام من القراءة) للكاتب الأرجنتيني البرتو مانغويل، ونقله الى العربية المترجم العراقي المغترب عباس المفرجي وأصدرته (دار المدى) سنة ٢٠٠٨، هذه الشذرة الجميلة المحملة بالمعاني التي ترد في ضمن حديث مانغويل عن عالم القراءة والمكتبات في دنيا الله، إذ يذكر أنه سأل أحد أصحاب المكتبات في كوفنت كاردن بلندن، بدافع الفضول والبطر وليس بدافع الرغبة واللهفة على اقتناء كتاب عنوانه (جزيرة دكتور مورو) فسأله البائع عن اسم مؤلفه فذكر له أسمه أج.جي.ويلز، الكاتب الايرلندي الذي أشتهر بكتابه (طعام الآلهة) فسأله هل هو حديث الصدور فأجابه مانغويل، كلا أنه مؤلف قديم ويأتي الجواب الصاعقة الذي يجمل ألف معنى ومعنى والذي يؤكد من جانب آخر تخلفنا وبؤسنا المعرفي وبأننا نحيا خارج حركة التاريخ والجغرافية.

البائع، صاحب المكتبة يجيب مانغويل، إذ كان مضى على الكتاب الذي تطلبه شهر واحد فأنه يكون قد نفد من مكتبتنا وهو غير متوفر لدينا الآن، لكن بإمكاننا أن نطلبه إليك!!، وإذ بحث عن عنوان الكتاب في الكومبيوتر ولم يجده، أضاف قائلاً لمانغويل: ربما نفدت نسخه!!

بعد أن يكون قد مضى على صدور الكتاب شهر واحد يصبح الكتاب قديماً في نظر صاحب هذه المكتبة اللندنية، فما هو حال مكتباتنا التي لا يكاد يؤمها شخص واحد في اليوم؟ وهذا الأمر لا ينطبق على العراق، بل على كل دول المنطقة أو أغلبها، ويوم مررت على أحدى المكتبات العامرة في مدينة حمص يوم كنت أعيش في قرية من قراها في الضاحية العمالية قرب مصفاة حمص النفطية عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، قال لي صاحبها بلهجة حمصية سورية محببة:

- ما في حدا بيقرا!!

لماذا ما في حدا بيقرا في بلادنا العربية وفي أوروبا والغرب يصبح الكتاب قديماً بعد شهر من زمان صدوره؟ وتطبع رولينغ الروائية البريطانية ملايين النسخ من رواياتها (هاري بوتر)، ولا تكاد كتبنا تتجاوز المئات عدا على أصابع اليدين أو اليد الواحدة!! وأغلب المطبوع أو كله ينام في المخازن لعدم وجود من يسوقه بعد إلغاء الشركة العامة للتوزيع والإعلان عندنا؟

وبودي أن أنقل صورة جميلة من عالم الكتب والمكتبات التي بقدر ما تبهجنا وتفرحنا لوصول الناس في دنيا الله الواسعة الى هذا المستوى الراقي احترام العلم والكتاب، فأنها تثير في نفوسنا الأسى والألم ونحن نقارنها بحالنا.

الدكتور يحيى الجمل أحد الوجوه الثقافية الحقوقية البارزة في مصر يذهب الى هولندة لغرض إكمال دراسته والحصول على درجة الدكتوراه في موضوع (الأعراف) اعتراف الدول ببعضها بعضا، يتوجه الى مبنى أكاديمية القانون الدولي، وهي تشغل جزءاً جانبياً من محكمة العدل الدولية (قصر السلام) في لاهاي وكانت مكتبة العدل هي مكانه الأثير في البحث عن مصادره ومراجعه الدراسية، وإذ كانت قلة المراجع معضلة فأن كثرتها أشد أعضالاً لأنها توقع الباحث في الحيرة والإرباك وماذا عساه أن يقول أو أن يأتي بجديد من هذه الكثرة من الدراسات والأبحاث؟

وإذ كان موضوع الأستاذ يحيى الجمل- وهو ما فصله في كتابه الممتع والمفيد المعنون (قصة حياة عادية) ونشر ضمن سلسلة (كتاب الهلال) الصادر عن دار الهلال في شهر تموز/يوليو من عام ٢٠٠٠ ويحمل الرقم ٥٩٥- الاعتراف، فأنه يعثر على مرجع فيه دراسة عن (الاعتراف بثورة الجزائر) فيطلبه ويأتيه الجواب من سكرتارية المكتبة بأن المرجع غير موجود فأعاد الطلب بعد يومين وجاء الجواب نفسه، غير متوفر وأعاد طلبه بعد يومين آخرين، فإذا بمديرة قاعة المطالعة وكانت سيدة كبيرة رقيقة الجسم مهيبة الطلعة بيضاء الشعر تأتي إليه بنفسها لتقول للطالب المصري يحيى الجمل:

- يبدو أنك بحاجة ماسة الى هذا المرجع لأنك طلبته ثلاث مرات.

فأخبرها أنه يكتب في موضوع الاعتراف وأنه عربي وأن بحثاً عن الثورة الجزائرية يعنيه، فهزت رأسها موافقة لكنها أجابته بأن المرجع قد أعير الى أحد قضاة المحكمة الدولية، ولا توجد نسخة ثانية منه لأنه بحث مكتوب في دورية وأن هذا القاضي يمضي أجازته في بلده، لذا يتعذر عليها تزويده بما يطلب!!

هذا الجواب أشعره بالأسى والألم، لكن المديرة الحضارية الوقور وقد رأت سيماء الأسى على وجهه، قررت اجتراح ما لن يستطيع أحد في بلداننا اجتراحه لقلة الشعور بالمسؤولية أن لم أقل انعدامها: أطرقت برهة لتقول: أصبر سأجد لك حلاً!!، ولم يمض غير يومين حتى كانت السيدة الوقور التي تعرف مسؤوليتها وواجباتها وتنفذها على أحسن وجه، لا بل تتجاوز الصلاحيات خدمة لصالح الناس والمجتمع.

تأتي محكمة العدل الدولية بلاهاي في هولندة التي هي أصغر من جانب الكرخ ببغداد والتي وسعت مساحتها بطمر أجزاء من البحر المحيط بها، جاءته هي وما استدعته اليها وفي يدها كتاب قائلة مبتسمة، لا متجهمة كحال أكثر موظفينا يتصنعون الوقار والألفة ويتصاغرون أمام أدنى الأسعار!!

قالت له: هذا المرجع الذي طلبته أرسلنا طلباً الى جامعة ليدن بهولندة كذلك واستعرناه منها لما علمنا أو شعرنا بحاجتك اليه!!

وإذ وصلت الى هذه الخاتمة التي تقترب من اليوتوبيات وحياة أهل المدن الفاضلة التي بشر بها الفارابي والفابيات نسبة الى المفكر الاشتراكي الطوباوي فابيوس علق العبد الفقير قارئ هذا النص الله أكبر هل هم ملائكة أم ماذا؟ ولماذا لا نصبح مثلهم؟!

في حين علق الدكتور يحيى الجمل كاتب هذا النص: يا سبحان الله الى هذا المدى الإحساس بالمسؤولية والى هذا المدى الجدية والى هذا المدى الرغبة في مساعدة الجادين؟

والى هنا نسكت عن الكلام المباح كما سكتت جدتنا شهرزاد من قبل، فهذا الذي سقناه من واقع يخرس جهيرة كل مقال وما عسانا أن نقول إضافة الى ما ذكر وقيل؟!

اوراق

٣- إشارات

محمود عبد الوهاب

الأولى/

الجنس الأدبي، تنظيم عضوي لأنواع أدبية، وهو أصل النوع، فالسرد مثلاً، جنس أدبي، والرواية والقصة والقصة القصيرة أنواع من السرود، تابعة للجنس بالانتساب، لأنها أنساليته ومنتجه الذي تَولّد على وفق قوانينه السوسيولغوية، والشعر جنس أدبي كذلك، والقصيدة نوع، ومن هذا الجانب ينبغي للكاتب والشاعر أن يحفظا للمنجز مصطلحه أو تسميته، وليس من الدقة، في ما أرى،أن يحمل غلاف مجموعة من القصائد اسم جنسه الأدبي لا صفة منجزه، كأن تحمل مجموعة القصائد تجنيساً على غلافها (شعر) لا (قصائد)، وهنا أتساءل: أيصحّ مثلاً أن يكتب على غلاف رواية أو مجموعة قصص قصيرة (سرد) بدلاً من (رواية) أو (قصص قصيرة)؟، وهل يصحّ أيضاً أن يكتب على غلاف (مسرحية) هذا التجنيس (مسرح)؟ إنها مسألة لا تعدو أن تكون مقترحاً للأجناسية المنضبطة بالنوع.

الثانية/

هل باستطاعتنا أن نضع حدوداً للأجيال الأدبية؟ وكيف؟ هل يُحدّد الجيل الأدبي بالعمر أو ببدايات الكاتب أو بخصائص إبداعه؟. ينبغي للدارس هنا ألاّ يتناول الأجيال الأدبية بوصفها أجيالاً بيولوجية أو فئات عمرية حسب، فالأجيال الأدبية تمتلك إمتيازاً خاصاً بها، إبداعا وإنجازاً، ومن هذا الجانب، يكون الجيل الأدبي قابلاً للحصر بالمشترك و التمييز، على العكس من الجيل البايولوجي الواسع الذي يُدرس بحسب فئاته العمرية، غير أن الجيل الأدبي ترتبط حدوده بمشتركات الخصائص الفنية، وغالبا ما نرى ذلك واضحاً في الدراسات التأريخية للآداب والفنون، كإطلاق صفة جيل الرومانسيين والرمزيين والبرناسيين الذين ارتبطوا بخصائص فنية معينة، كذلك نجد كتاب الرواية الجديدة في فرنسا الذين لم تجمعهم أعمارهم بل خصائصهم المشتركة في الكتابة الروائية، تلك الخصائص التي جمعت بين (غرييه) وميشيل بوتور وكلود سيمون وناتالي سارّوت، مع الفارق الكبير في السنّ بين ساروت وغرييه مثلاً، وهذا ما يمكن قوله أيضاً عن كتاب الواقعية في الخمسينيات لاشتراكهم بالخصائص المهيمنة على نصوصهم إلى حد كبير.

يرى روبير اسكاربت، أنّ مفهوم الجيل، على إغرائه، يشوبه الغموض وليس واضحاً تماماً، مقترحاً استبدال "الفريق" بـ "الجيل" لأن "الفريق" أكثر مرونة، وهذا الاستبدال لا يعني إلغاء مفهوم الجيل الأدبي الذي يشترك بخصائصه، لكن هذا الاستبدال يتوجّه مباشرة إلى المصطلح لا إلى المفهوم.

الثالثة/

في كتابه "دفاع عن الأدب" خصّص الكاتب و الروائي الفرنسي جورج ديهامبل، (ترجمة الدكتور محمد مندور)، فصلاً عن فن القصّ، تناول فيه واقعية اللغة في الحوار، مؤكّداً أن استعمال اللهجة العامية في حوار الشخصيات الروائية والقصصية بقصد محاكاة الواقع اليومي، ما هو إلاّ نظرة صبيانية، وأن الكاتب الماهر هو الذي يرى أن الواقعية في الحوار ليست في إستعمال اللهجة العامية، وليست في إستعمال اللغة الفصيحة، إنما هو في الآراء التي تمثّل المستوى الفكري والثقافي والبيئي للشخصية، وأن على الكاتب أن يعمل على تطعيم لغة حواره بخصائص لغة الأفراد والبيئات، وأن يُدخلها في روح اللهجة العامية، أي أن تتزيّا لغة الحوار بزيّ اللهجة لا اللهجة ذاتها، و في محمولها أيضاً الذي يمثل مستوى الشخصية الروائية والقصصية الفكري والثقافي، وفي محاكاة يسر اللهجة وسهولة تداولها، فليس من الواقعية أن يتكلم الحوذي بأنساق فلسفية في لهجة عامية، هنا يفقد الحوار صدقيته، مادام محموله الفلسفي لا يناسب واقعياً أفكار حوذي بسيط.

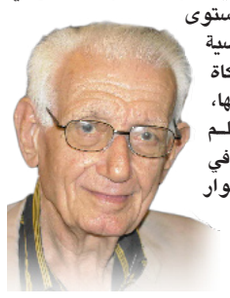

نشاطات اتحاد الأدباء الثقافية لعام -٢٠٠٩-

الثقافةُ تخلقُ الدهشةَ في الأسئلة

أعلنت الأمانة العامة للشؤون الثقافية في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، عن نشاطاتها الثقافية لعام ٢٠٠٩ وعن المهرجانات والاحتفالات التي قامت بها للعام المنصرم الذي شهد الكثير من الاحتفاء بالمبدعين العراقيين القادمين من المنافي، والى الذين لم يغادروا ارض الوطن، وقدم الجلسة الناقد علي حسن الفواز قائلاً: وسط هذه الصراعات ووسط هذه التجاذبات نبحث كمثقفين عن مساحات تتسع لنا، تتسع لأصواتنا لنقدنا لأسئلتنا، واعتقد ان الثقافة التي تواجه الأسئلة هي ثقافة حية، تعودنا ان لا نقاطع الأسئلة، نحن منذ سنوات خامرنا بان نكون صانعي الأسئلة، واعتقد ان صناعة الأسئلة هي المهمة الأخطر، نحن نريد ان نحمي الإنسان الذي ظل مضطربا وقلقا، وظل صانعا لتاريخ طويل من المركزيات وتاريخ طويل من الحروب.

واسترسل الفواز بالشرح على مفاصل الحياة الثقافية التي يحاول الانسان العراقي ان يصل الى الضفة الإبداعية وقال: ان الحياة الشاغلة والحياة الفاعلة ،نحن نصنع حياة منشغلة وحياة فاعلة ونحاول ان نتجاوز الذين يحيون الإرهاب والقتل وكذلك يحبون تعطيل الحياة، ان أيام الثقافة في هذا العام شهدت الكثير من الأصوات العالية المطالبة بالطيف السياسي العراقي، ومطالبة الجهات التشريعية والتنفيذية بان تسند العملية الثقافية، وتعمل على صناعة كل الإمكانات في كل الاطر التي يمكن ان تفعل الجهد الثقافي لاننا نؤمن ان الملف الثقافي هو واحد من اخطر ملفات التحول في الحياة السياسية ،فتاريخ التحولات التي حدثت في الدول ان لم تقم على أسس ثقافية بكل ما تعنيه من رؤى عميقة، فلا يمكن ان تتحول بالشكل العميق وبالشكل الصحيح وبالاتجاهات الايجابية التي تخلق تقاليد مكرسة للفعل الاجتماعي، اعتقد الآن ان الصوت الذي يصنعه المثقف هو صوت فيه خليط من الاحتجاج ومن الرغبة ومن الطموح وخليط من الأمل، ان ما تحقق لهذا العام ساترك ذكره الى الأستاذ الفريد سمعان لكي يعلن عن هذه الفعاليات والأنشطة. وقال الأمين العام لاتحاد الأدباء العراقيين الفريد سمعان :ان قيادة الاتحاد خلال هذه الفترة قادت الى أهم ما كان يؤدي الى هذا النشاط وهو تضامن المكتب التنفيذي مع المجلس المركزي ،صحيح قد تحدث بعض الاشكالات ولكن كان الهدف الرئيسي هو ان يقود الاتحاد الثقافة الى ابعد نقطة يمكن ان يصل اليها، وهذا مكسب كبير هو ان نختلف ولكن نخرج بنتيجة عالية لخدمة الثقافة العراقية والاتحاد الان اصبح اكبر منظمة ثقافية في العراق، ولا يمكن ان يكون هناك أي نشاط ثقافي دون مشاركة الاتحاد والشواهد كثيرة وسوف نقول بعضها، أولا تطورت نشاطات الاتحاد وأصبح يقدم أربعة نشاطات ثقافية في الأسبوع – في السبت نادي الشعر – وفي الاثنين نادي نازك الملائكة – الأربعاء نشاطات ثقافية – والخميس ملتقى الخميس الإبداعي –والجمعة نادي السينما – وهناك نادي الترجمة الذي نحاول ان نضع له منهاجا لكي يتواصل مع النشاطات الأخرى، نحن لم نعتمد على اية جهة سياسية او مدنية ونمول اتحادنا من إيراداتنا الخاصة بنا وهي بسيطة جدا، علما ان أي عضو من المكتبين التنفيذي والمركزي لم يتقاض أي راتب وهذه جهودنا من اجل الثقافة العراقية التي نفتخر بها وهو انتماؤنا والدرب الذي سلكناه ولا نريد من احد اية منة علينا. وأشار عضو المكتب التنفيذي شوقي كريم الى أهمية هذه الدورة التي خدمت الثقافة بعيدا عن التحزبات والطائفيات وقال: ان الثقافة العراقية بعيدة كل البعد عن هذه التعصبات التي لم تتأثر بها الثقافة العراقية، واعتقد اننا أشعلنا منبر الثقافة الحقيقية التي سماها الاخ علي الفواز الثقافة المدنية، ونحن اخطر مؤسسة ثقافية في العراق لان الجميع يعمل في المؤسسات الإعلامية والثقافية ،ونحن نقاتل من خلال الإعلام. وقالت القاصة عالية طالب: من خلال هذا المكان الكبير الذي لي فيه مجموعة من الذكريات الجميلة، واعتقد ان حفريات الذاكرة لا يمكن ان تمحى بسهولة ،لقد غبت فترة عن العراق ولكني كنت أتابع نشاطات الاتحاد عبر –الانترنيت –وكنت اتفاجأ حقيقة من ان هناك نشاطات في الاتحاد رغم الصعوبات التي تمر بها البلاد ويحضرها جمهور من المثقفين والمعنيين بالثقافة، وهذا هو الإصرار الحقيقي على مواصلة الحياة.

وجهة نظر

مثقفو الداخل والخارج.. لعبة خاسرة

فليحة حسن

هذه النغمة/ المعادلة جزء من نغمة أكبر صدى يسري بعنف أحيانا وبهدوء أحيانا أخرى في والوسط العراقي السياسي قبل الثقافي، فإن بعض الجهات السياسية طرحت مقولة عراق الخارج وعراق الداخل، في السياق إ شارة مؤكدة وصريحة إلى أن هذا التقسيم مدعاة نظر في مقاييس التفاضل والمراتب في المواقع السياسية والوظيفية في جسم الدولة العراقية، وقد طرحت تنظيرات شبه أديولجية لمثل هذه المعادلة المربكة والمؤذية بصراحة لضمير الوطنية في الصميم . والغريب أن ينعكس هذا السياسي على الثقافي، فتنحر الثقافة العراقية على مذبح التقسيم المذكور، وكأن الثقافة بضاعة أو جسم مادي يمكن أن نشطره بالسكين إلى نصفين أو إلى أربعة أرباع، وهذا التقسيم يمكن أن يستمر إلى ما لانهاية، لأن آلية التقسيم وهي تنتمي إلى الخارج والداخل، فإن الخارج كثير، والداخل أيضا كثير،ترى هل سوف نشهد مصطلح (مثقفي العراق الخارج/ فرنسا) مثلا في مقابل مثقفي العراق في الخارج الموجودين في بريطانيا؟

فهي لعبة خاسرة إذن، لأنها استعملت معياراً سائبا، يمكن أن يشقق موضوعه الى شذر مذر، وفيه تجني موجع للثقافة كممارسة فكرية وروحية لا تخضع لمثل هذا التقسيم، فهل يراهن هذا التقسيم من إن موضوعا ثقافيا كان محل حصر على مستوى أدباء الخارج ؟ وإن هناك موضوعا ثقافيا كان محل حصر أبدي على مستوى أدباء الداخل؟

إن مثل هذا التقسيم اعتسافي بارد، يتجاهل أو لم يفهم مغزى الإنتاج الفكري والثقافي والروحي، وهل هو إلا عملية تتضاد مع الذات الكونية للمثقف؟ وهل هو إلا عملية تتضاد مع كون الفكر لا يعرف الحدود الجغرافية و المكانية؟

إن مثل هذه التقسيمات تخل برسالة الثقافة، وتستنجد بالمساطر الخشبية لتقيس معاني الجمال والخير والروح والإبداع، وهي عملية تشطيرية مرتبكة، وتدخل مفاهيم الفكر والإبداع في دهاليز سياسية واديولجية من شأنها قتل ا لعقل، وتبليد العاطفة.

مثقفو الخارج العراقي ومثقفو الداخل العراقي يجمعهم أمران، العراق والثقافة، والداخل والخارج أمكنة تعيش خارج الروح، وليس داخل الروح، وليس من شك إن الإنسان العراقي مهما تغرّب يبقى سليل تلك البيئة والطين والهواء والماء الذي تربى عليه، وعاش به، ونما بفضله وكرمه، وحتى لو مرت عليه أجيال يبقى أسير اسمه وسمرته ولقبه، فالوطن وراثة جينية، تضرب بعروقها في أعماق الذات، تتسلل عبرها إ لى الذوات المتمخضة عنها.

كذلك قال أرسطو..

إن السياسة تقتل الفكر إذا أقحمت أنفها المزكوم في جسد الحرف والكلمة واللوحة والثيمة والنص والنصب والكتاب والشعر، بل تفسد حتى الرياضيات التي هي أجمل مخلوق نظري في نظر الكثير من المفكرين والكتاب وعلماء العلم وتاريخه.

بدل أدباء الداخل ا لعراقي والخارج ا لعراقي هناك مصطلح الأدب العراقي، الفكر العراقي، الإبداع العراقي، الإنتاج العراقي، والعراق هو الروح التي تسري في العمل كله، سواء جاء من عراقي يعيش في أهوار الجبايش الجميلة أو في جبال الألب الباردة.

هي دعوة ديماغوغية، فرسانها الساسة، وميدانها التنافس على حطام الدنيا، وربما تساهم في تمزيق الاجتماع العراقي المقدس لدى كل عراقي نبيل.

عبقرية العمى.. الوجه الاخر لفاوست

ايمان قاسم

بعد مرور خمسين عاما،أصبح بيترويل، الشخصية الرئيسية في رواية (النموذج) للكاتب البرتغالي لأرس سابي غريستونسيون، واثقا تماما من ماهية فنه وأهمية عمله. فحركات يديه تمثل نتاجا لحياة مليئة بالتجارب ومسكونة بفن الرسم.

ولطالما اعتاد على إيجاد ورشته (التي منع زوجته وابنته من دخولها) مسكونة بلغز غريب وخالية من الأشياء التي تعكر صفو مزاجه، لغز يحثه على التأمل في عالم يتعذر سبر أغواره أو معرفة إسراره أو وضع نهاية لحدوده.

وهذا الفنان ببساطة لا يرسم ما يشاهده لأنه يمتلك نفاذ بصيرة تعوضه عن البصر الذي فقده في إحدى صباحات تشرين الأول حينما قضى أوقات طويلة ومضنية من الوحدة،بعدها لم يجد إمامه سوى العمى والسواد. والأمر الذي كان اشد اسودادا هو اليأس الذي جثم على روحه حالما أعلمه الأطباء بفقدانه البصر نهائيا نتيجة إصابته بالتهاب الشبكية الخضابية المزمن. وبعد مرور بضعة أسابيع على بدء العام الجديد، أصبح بيترويل أعمى تماما. وقد أفصح عن معاناته لصديقه المفضل (بين) قائلا: "لم اعد اهتم لشيء، لقد أمسيت عجوزا في اللحظة التي لم اعد أبصر بها النور، وفقدت رغبتي في قول النكات أو سرد الحكايات، وبت اشعر أن ثيابي لم تعد تلائمني أو لم تعد تليق بي على الرغم من إنني لا أرى شيئا منها".

في بادئ الأمر، شعر هذا الرسام انه لا يستطيع العيش من دون ان يبصر. وتدريجيا، أدرك انه ليس بحاجة إليها أو إلى الطب ما دام ما تبقى لديه أفضل من ذلك. لم يكن الأفضل سوى هواجسه التي يلتقيها دائما بهيئة زميل قديم له في الصف.

وبمرور الزمن المشوب بتفاصيل صغيرة، عبر بيتر عن لحظات التمرد والعنف أو مواقف الضعف والسكون لشخصية على حافة الهاوية. ويتضح أمامنا أن بيترويل أصبح -رغما عنه- الوجه الآخر لفاوست، الشاب الذي باع روحه الشيطان تلبية لأمانيه التي لا تتحقق في البهجة والمتعة الخالدة.

فلطالما سخر من العلم الذي لم يمد له يد العون والحرية التي لم يسمع عنها شيئا. وأصبح هاجسه هو الرؤية من جديد. وقد حاول صديق المدرسة إقناعه مرارا بضرورة استبدال (القطع التالفة) أي عليه أن يأخذ بالرأي الذي فرضه عليه دكتور العائلة ألا وهو إجراء عملية جراحية تتمخض عنها إزالة عين المريض واستبدالهما بعينين زرقاويين لصبية صغيرة ومعدمة هائمة في شوارع الجمهورية السوفيتية الاشتراكية، لا احد يعرف بوجودها أو يهتم لأمرها.

وعلى الرغم من رفض بيتر ويل إلا أن محاولات الإقناع استمرت من قبل صديقه القديم الذي يرى إن جسد الفنان شبيه بلوحته. فالمرممون يصلحون، في قاعات المتاحف الصغيرة، أدق التفاصيل واصغر الثغرات ويقفون طويلا عند الأماكن الصغيرة. كذلك الحال بالنسبة للأجساد التي تحتاج إلى العناية الدائمة والرعاية المتواصلة لأنها لا تبلى مع الوقت فحسب بل تفسد وتتعفن أيضا. وخلافا للفن المنطوي على لمسات لا تعنى بالزمان يتعرض جسد الرسام أياً كان إلى المرض أو السقم أو الفقر أو الموت. إلا إذا صرخ بأعلى صوته كي يسمعه الآخر (الهواجس) ويعقد معه صفقة رابحة للطرفين وهذا ما حدث لبيتر الذي نجح في الوصول إلى الطبيب الجشع الذي أراد اقتلاع عينا الطفلة إرضاءً لجيوب الرسام المليئة بالنقود.

في الواقع يرى البعض إنه شعر أن حياته تساوي أكثر من إقرانه الآخرين بوصفه رجلا غنيا قادرا على الوفاء بالدين. وكان يقول دائما تلك الفتاة لم تحاول منح بصرها عبثا أو من اجل لا شيء. يرى هذا الفنان وعلى النقيض من (أوديب) انه لا شيء في العالم أكثر قيمة من امتلاك عينين مبصرتين، فطالما يرى المرء فهو يشعر بالحياة تسري بين جنبات عروقه.

و تعد(النموذج) عملاً وسيطاً لروايتين عملاقتين هما (الشقيق من الأم) التي جرت أحداثها في مدينة (اوسلو) وتحديداً في خمسينيات القرن العشرين حيث عاش فريد مع شقيقه من أمه (بارنوم) في كنف نساء ثلاث هن: الأم والجدة ووالدة الجدة.

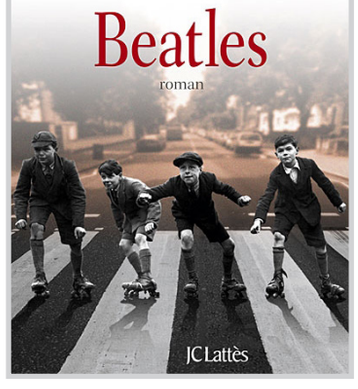

نجد فيها عائلة ذات تاريخ عريق ومأساوي، كل فرد منها له أسراره الخاصة ومواقفه العصيبة وجراحه التي لا تندمل. أما الرواية الثانية فهي بعنوان (البيتلز)، الاسم الذي أطلق على فرقة إنجليزية لموسيقى (البوب). ويتحدث فيها عن ثلة من المراهقين عاشوا في ستينيات القرن العشرين ومنهم أربعة متميزين: غيم وغوتارد اولاوسيب. أجتمع هؤلاء في مكان واحد تحذوهم غاية واحدة ألا وهي شغفهم ورغبتهم الكبيرة في الانتماء إلى فرقة(البيتلز). وبمرور الوقت نرى هؤلاء يتأرجحون بين قصص الحب وأحلام الشهرة المحاطة بالإحباطات اليومية. سردت مغامرات هؤلاء المراهقين من قبل (كيم)، البطل الأكثر طموحاً والأرق مشاعراً في الوقت ذاته. وعبر هذه المغامرات، يصف لنا الكاتب، أحداث فيتنام المريعة وبنايات باريس التي اندثرت تحت وطأة المتاريس وقصة النرويج التي ترددت طويلاً قبل الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. ولا ننسى أن كل فصل يحتوي على عنوان وفكرة لإحدى أغاني هذه الفرقة، فهي باختصار أربعة حيوات ملحنة على أنغام (البيتلز)... نموذجهم المثالي. وتعد هذه الرواية مصدراً هاماً للأدب النرويجي المعاصر.

وعلى غرارهاتين الروايتين السابقتين، تعبر النموذج عن مأساة عائلية، فبيتر ويل الرسام المعذب الذي يتهافت للحصول على بصر جديد هو في الوقت نفسه أبا وزوج مدان من قبل زوجته وابنته. فتخاذله عن مسؤوليات الأبوة وتصرفاته غير اللائقة ووقاحته غير المبررة وضعفه في كثير من الأحيان، بدت واضحة بمرور الأيام للأشخاص الذين يحبهم ويودهم.

ظهرت هذه الصفات أكثر عندما هوجمت ابنته (غايا) من كلب حراسة شرس لدى قيامها بنزهة في الغابة. فاستاءت كثيرا عندما وجدت والدها بقربها ولم يفعل لها شيئا لا بل ولم يحرك ساكنا وعندما طلبت منه زوجته تفسيرا لما حدث لم ينبس بيتر بكلمة بل راوغ بدهاء وتملص بمكر.وإخفاءً لتعاسته كوالد، آثر بيتر البوح ببعض من الأسرار الصغيرة المنفرة والدنيئة لابنته الصغيرة التي شبهها بأنتيكون(١) المتمردة عندما أخبرت أباها بأنها لا تريد له النوم في الظلام.

شيئا فشيئا، شعر الأعمى أن الضعف بدأ يدب في أذنيه أيضاً وقال مواسيا لنفسه: "لا اعرف لم لم اعد اسمع فقد خمدت فجأة ضوضاء العالم بأسره وأطرقت مفكرا إن هذا الخمود هو ما نسميه بالوحدة. ووسط هذه الصحراء المخيفة، لم أجد ملاذا سوى الرسم من جديد".

في هذه اللحظة، ودع بيتر فرشاته وودع معها لحظات الخوف الطويل. ثم بلل يديه بالماء ووضعها في لوحة الألوان واخذ يسطر ما يشعر به على قماش اللوحة المواجهة له.

هكذا وجد رسامنا العبقرية باللمس والتحسس والخبط العشوائي غير المنهجي للألوان وفي العمى أيضا. وهكذا لم يبقى لديه سوى يديه،اللتان قال المؤرخ والباحث فوسيلون بحقهما: "كيف اصف وجهان بريئان بلا عيون ولا صوت لكنهما يريان جيدا ويتحدثان بطلاقة".

الآن بات بيتر يعرف تماما قيمة هذا القول وبأنه لم يحظى بعينيين زرقاوين مثلما تمنى بل برؤية صافية أدخلته عالم الشهرة وعرفته معنى الشعور بالذات.